مجلة

كلية الدراسات الإسلامية والعربية

إسلامية فكرية ثقافية محكمة

العدد

السادس

١٤١٤هـ

١٩٩٣م

الرواية في تفسير الجلالين
ونقد ما فيه من روايات باطلة وإسرائيليات

أ. د. نورالدين عتر*

لئن اشتهر الإمام جلال الدين محمد المَحَلي والإمام جلال الدين عبدالرحمن السيوطي بكثرة مؤلفاتهما، فإنهما قد اشتهرا أكثر من ذلك بجملة مؤلفات احتلت مركز العمدة، ولاسيما الإمام السيوطي.

لكن العمل الذي كتب له أثر أوسع في المجتمع الإسلامي على مر القرون هو التفسير المختصر للإمام المحلي الذي صار مع تكملته للسيوطي كتاباً كاملاً، في التفسير، مختصراً، كثير الفوائد، اشتهر باسم «تفسير الجلالين» وانتشر بين عامة المسلمين وخاصتهم، حتى في عصرنا.

وهذا ما يجعل دراسة هذا العمل الذي قام به الإمامان الجليلان مهمة ينبغي الاعتناء بها، لاسيما وأن هذا التفسير ـ كما ذكرنا ـ قد ذاع بين الناس حتى لا يكاد يخلو منه بيت مسلم، مما يجعل له أثراً عميقاً في توجيه الحياة الإسلامية.

لماذا جانب الرواية؟

ومع وجود جوانب لغوية وغير لغوية في ثنايا هذا التفسير فقد خصصنا موضوعنا هذا بالرواية لأنها معتمدة عند عامة الناس دون بحث، ونازلة لديهم منزلة التسليم، وشملنا في قسم من الرواية الكتاب كله بقسميه، وذلك في قسم الإسرائيليات والرواية الموضوعة، لتمام الفائدة.

ويسمي كثير من العامة هذا التفسير «تفسير ذو الجلالين» بإضافة «ذو»، وهو خطأ في التسمية، كما أنه خطأ أيضاً في الإعراب كما هو واضح.

---

* رئيس قسم علوم القرآن والسنة في كلية الشريعة بجامعة دمشق وأستاذ التفسير والحديث في جامعتي دمشق وحلب.

قصة تأليف الكتاب:

وسبب تسمية هذا التفسير بذلك أنه اشترك في تأليفه كما ذكرنا ـ إمامان يلقب كل واحد منهما بلقب «جلال الدين»:

الأول: جلال الدين محمد بن أحمد المحلي، الفقية الأصولي الشافعي الشهير، المتوفى سنة ٨٦٤ هجرية.

الثاني: جلال الدين عبدالرحمن السيوطي العلامة الإمام الشهير المتوفى سنة ٩١١هـ.

ومن لطائف المقادير، وعجائب الأمور أن الإمام المحلي بدأ عمله في التفسير من أول النصف الثاني من المصحف، من سورة الكهف، وفسر إلى آخر القرآن، وسلك هذه الطريقة لأنه وجد أناساً شرعوا في التفسير ثم لم يكملوه، فرأى ذلك ادعى إلى توفر العزيمة لإكمال هذا العمل، الذي أراده موجزاً قريباً إلى القراء.

لكن المنية حالت دون هذه الأمنية، فتوفي المحلي دون أن يتمكن من تفسير النصف الاول، فجاء الإمام جلال الدين السيوطي بعده، وأكمل تفسير القرآن وفق خطة المحلي نفسها، فصار التفسير مشهوراً كثير التداول بين الخاص والعام لوجازته وسهولته، واشتهر بهذا الاسم: «تفسير الجلالين»، وساعدت طباعته على هامش المصحف على هذا الانتشار أيضاً وحسبك بكتاب موجز جداً في تفسير القرآن، يعنى به إمامان جليلان.

وبدراستنا لهذا التفسير كله وجدنا أن عمل الإمامين مع تشابهه من حيث الظاهر يتميز لدى التدقيق من بعضه، والذي نلخصه هنا: أن جانب التفسير بالمأثور أكثر توفراً لدى السيوطي في عمله هنا من عمل المحلي.

والتفسير المأثور هو الأصل الأول في تفسير القرآن الكريم، لا يستغني عنه المفسر، مهما أوتي من العلم وعمق النظر ودقة الفهم في كتاب الله تعالى. ويعتمد التفسير المأثور في الأصل على تفسير القرآن بالقرآن، وتفسير القرآن بالحديث النبوي.

وقد تلقى الصحابة تفسير القرآن عن النبي صلى الله عليه وسلم، ونقلوه للناس، وأضافوا من اجتهاداتهم تفسيراً لما لم يتلقوا تفسيره عن النبي صلى الله عليه وسلم، وكذلك تلقى التابعون التفسير عن الصحابة، واجتهدوا كذلك.

ومن هنا صار لتفسير الصحابة والتابعين أهمية خاصة لكثرة ما دخل في تفسيرهم من الحديث النبوي، ولقرب عهدهم من عهد النبوة، والصحابة في ذلك أعظم من التابعين.

ومع الاختصار الشديد في تفسير الجلالين، فقد احتلّ الاستشهاد بالحديث فيه حجما لابأس به، بالنظر إلى اختصاره، ونتكلم في هذا البحث على الاستشهاد بالحديث النبوي في تفسير الجلالين فيما يلي:

أولا: أسباب النزول:

سبب النزول: هو مانزلت الآية أو الآيات تتحدث عنه أيام وقوعه، فهو يتناول كل حدث نزلت الآيات بشأنه، من قول يقال، أو سؤال يطرح، أو واقعة عملية تحدث.

واشترطوا فيه «أيام وقوعه» لأمرين هامين:

١ ـ صيانة الدارس عن أن يخلط بين سبب النزول وبين موضوعات الآيات التاريخية من وقائع الأمم الماضية التي أخبر عنها القرآن، فقصها على الناس، فليست تلك الوقائع مثل قصة إبراهيم وموس وعيسى وأصحاب الكهف وغيرها ليست أسباب نزول للآيات، لأنها لم تقع أيام نزول القرآن.

٢ ـ عبروا بقولهم «أيام وقوعه» بالجمع، لأنه قد ينزل القرآن بعد السبب بقليل، مثل آيات قصة الكهف، نزلت بعد خمسة عشر يوماً من سؤال المشركين للنبي صلى الله عليه وسلم، وهناك آيات نزلت بعد شهر من سببها(١) ومعلوم أن القرآن لم ينزل كله على أسباب، بل منه ما نزل ابتداء غير مسبوق بسبب ـ

---

١ ـ الإتقان في علوم القرآن للسيوطي: ١:٣١ ومناهل العرفان للزرقاني: ١:١٠١ والمدخل إلى دراسة القرآن الكريم لمحمد أبي شهبة: ١٣٣.

على المعنى الذي شرحناه ومنه ما أنزل على أسباب، ولمعرفة سبب النزول فوائد في غاية الأهمية نذكر منها ما يلي بإيجاز:

١ ـ الاستعانه على فهم المعنى المراد، لما هو معلـوم من الارتبـاط بين السبب والمسبب.

قال الواحدي: «لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيـان نزولها».(١)

وقـال ابن تيمية: «معـرفـة سبب النـزول يعين على فهم الآيـة، فـإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب».

٢ ـ معرفة وجه الحكمة التي ينطوي عليها التشريع مما يكون أدعى لتفهمه وتقبله، فمن قرأ أسباب نزول آيات تحريم الخمر متدرجة واحـدة تلي الأخـرى أدرك ضرورة تحريم الخمر، وبعثه موقف الصحـابـة وامتثـالهم العجيب عنـد نزول تحريمها البات لأن يقتدي بهم، ويأتسي بعملهم.

٣ ـ كشف أسرار البلاغة في القرآن العظيم:

وذلك أن ركن البلاغة الأساسي هو: «مطابقـة الكـلام لمقتضى الحـال»، ومن العسير أن يصل دارس القرآن إلى بلاغته وخصائص أسلوبه دون علم أسبـاب النزول، التي يدرك بها خصوصيات مقـاصـد الأسلـوب، حيث يجد أن القـرآن الكريم راعى مقتضى حال المخاطبين في عصر نزوله على أعلى مستوى معجز في الوقت ذاته الذي تلاءم أسلوبه مع مقتضى حال العالمين إلى يوم الدين.(٢)

ولهذه الأهمية البالغة لأسباب النـزول تشـدد السلف في البحث عن أسبـاب النزول. حتى قال الإمام محمد بين سيرين: سألت عبيدة (أي السلماني) عن آية

---

١ ـ مطلع كتاب أسباب النزول للواحدي.

٢ ـ انظر دراسة موسعـة مـع الأمثلـة التطبيقيـة في كتـابنـا «القرآن الكريم والدراسـات الأدبية»: ٥٨ ـ ٦٧.

من القرآن؟ فقال: «اتق الله وقل سداداً، ذهب الذين يعلمون فيما أنزل الله القرآن».(١)

ومن هنا كان من البدهي أن يعتمد الجلالان في تفسيرهما على علم أسباب النزول، لاسيما السيوطي، وهو مؤلف «لُباب النقول في أسباب النزول» و«الدر المنثور في التفسير المأثور». لكن هذا لا يلزمهما ان يذكرا أسباب النزول لكل آية. بل يكفي أن يكون عملهما في التفسير مراعياً هذا العلم، ونجد في هذا التفسير جملة صالحة من أسباب النزول، بطريقة الإيجاز والإشارة، مراعاة للاختصار الذي بني هذا التفسير من أصله عليه، ومن أمثلة ذلك عند السيوطي:

قوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به...﴾

قال السيوطي: «ونزل لما اختصم يهودي ومنافق فدعا المنافق إلى كعب بن الأشرف ليحكم بينهما، ودعا اليهودي إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فأتياه فقضى لليهودي، فلم يرض المنافق، وأتيا عمر فذكر له اليهودي ذلك، فقال للمنافق أكذلك قال؟ قال: نعم. فقتله ـ ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون ...﴾(٢)

ففي هذه القصة روايات كثيرة، كثير منها لايذكر الذهاب إلى عمر ولايذكر كعب بن الأشرف وقتل عمر للمنافق.(٣) لكن السيوطي هنا اختار هذه الرواية لكونها أجمع الروايات، واختصر سياقها قليلاً، وكان لحظ فيها المناسبة لما يأتي بعد في الآيات من ذكر المصيبة التي أصابت المنافقين بما كسبت أيديهم.

ومن أمثلة ذلك: قوله تعالى: ﴿ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله﴾ الآية...

---

١ ـ الموافقات للشاطبي:٣:٤٢٢ ـ ٤٢٣ والإتقان: ١:٣١.

٢ ـ سورة: النساء: الآية: ٥٩. وقوله: «ألم تر» في محل رفع فاعل لنزل. وانظر تفسير الجلالين: ١١٥.

٣ ـ انظر الدر المنثور: ٢:١٧٨ ـ ١٧٩. ولباب النقول بذيل الجلالين: ١٧٠.

قال السيوطي في هذا النص: «نزل(١) في رجل بعث إليه النبي صلى الله عليه وسلم من يدعوه، فقال: من رسول الله؟ وما الله؟ أمن ذهب هو أم من فضة أم نحاس؟ فنزلت به صاعقة فذهبت بقحف رأسه».(٢)

وهذا تلخيص لسبب النزول الذي ورد من عدة طرق يقوي بعضها بعضاً.(٣) وهكذا يورد السيوطي ما كان ثابتاً من أسباب النزول مقتصداً في ذلك مع تلخيص الرواية مراعاة لطبيعة الكتاب، واعتماداً على كتب التفسير المأثورة، وكتابه «لباب القول في أسباب النزول».(٤)

لكن يستثنى من ذلك موضع يستدعي وقفة تأمل لعمل السيوطي في أسباب النزول، بل التعجب، ذلك هو سبب النزول الذي ذكره في الآيات: ٧٦ ـ ٧٨ من سورة التوبة.

ذكر السيوطي سبب النزول مدمجاً بالآيات هكذا:

﴿ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين﴾: وهو ثعلبة بن حاطب سأل النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو له أن يرزقه الله مالاً، ويؤدي منه كل ذي حق حقه، فدعا له، فوسع عليه، فانقطع عن الجمعة والجماعة ومنع الزكاة، كما قال تعالى: ﴿فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون﴾ فجاء بعد ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم بزكاته، فقال: إن الله منعني أن أقبل منك، فجعل يحثو التراب على رأسه ثم جاء بها إلى أبي بكر فلم يقبلها، ثم إلى عمر فلم يقبلها، ثم إلى عثمان فلم يقبلها، ومات في زمانه».(٥)

---

١ ـ أي النص المذكور، وهو قوله تعالى: «ويرسل الصواعق...».

٢ ـ سورة الرعد: الآية: ١٤. وانظر تفسير الجلالين: ٣٢٩.

٣ ـ انظر تفسير ابن كثير: ٥٢٤:٢ ولباب النقول: ٣٢٩ ـ ٣٣٠.

٤ ـ انظر مثلا تفسير الآيات التالية من الجلالين: سورة النساء: الآيتين ٦٨ و١٠٤ والمائدة: الآيتين ٣٦ و١٠٤ والأنعام: ٩٣ و١١٤ وغيرها.

٥ ـ سورة التوبة: الآيات: ٧٦ ـ ٧٨.

هكذا أورد السيوطي قصة سبب النزول ملخصة عن رواية فيها تفاصيل وسرد يشبه أسلوب القصاص وحبكهم للحكايات، وكان ذلك من أسباب ذيوع القصة وانتشارها على ألسنة الوعاظ والخطباء، ولعل هذا الذيوع جعل السيوطي يوردها هكذا، مع أن فيها إشكالات في السند وفي المتن نبينها بإيجاز فيما يلي:

أما في السند: فقد اختلف الرواة في ذكر اسم صاحب القصة، فبعض الرواة سماه «ثعلبة بن حاطب» وبعضهم لم يسمه إطلاقا بل أغفله.(١)

ونلاحظ بالدراسة للأسانيد أن الروايات التي ورد فيها تعيين الاسم أنه ثعلبة بن حاطب ضعيفة، قال الإمام البيهقي(٢) بعد أن أوردها: «هذا حديث مشهور بين أهل التفسير، وإنما يروى موصولاً بأسانيد ضعاف».

بينما نجد الروايات الأخرى التي لم يذكر فيها اسم الصحابي ولا إشكالات المتن التي سنذكرها ثابتة بالأسانيد من صحيح وحسن. فكانت هي العمدة في هذه القصة.

وأما المتن فمشكل من وجوه، نذكر منها مايلي:

١ ـ في القصة أن صاحبها هو ثعلبة بن حاطب، وثعلبة بن حاطب صحابي أنصاري قديم الإسلام شهد بدراً،(٣) فهو إذن ثابت العدالة، لا يمكن وصفه بالنفاق، لأن عدالة الصحابة ثابتة بالكتاب والسنة والإجماع،(٤) فضلاً على كونه من أهل بدر، وفضلهم ثابت بالتواتر.

٢ ـ تعارض تسمية صاحب القصة، فهناك من يقول: إنه ثعلبة بن حاطب، وقيل: ثعلبة بن أبي حاطب، وقيل: حاطب من أبي بلتعة: وكأن التسمية وردت

---

١ ـ انظرها بأسانيدها في جامع البيان في تفسير القرآن للطبري: ١٤:٣٦٩ ـ ٣٧٤.

٢ ـ دلائل النبوة: ٥:٢٩٢.

٣ ـ الطبقات الكبرى لابن سعد: ٧:٤٦٠ والاستيعاب لابن عبدالبر: ١:٢٠٠ هامش الإصابة. والثقات لابن حبان: ٣:٣٦.

٤ ـ انظر هذه الدلائل في كتابنا منهج النقد في علوم الحديث ص ١٢١ ـ ١٢٤.

لذهن بعض الرواه تواتراً مصادفاً دون مستند ثابت.

٣ ـ أن نص القرآن حكى الواقعة عن جماعة «لنصدقن» «فلما آتاهم من فضله بخلوا...». والرواية تجعله واحداً. فهي تخالف نص القرآن.

٤ ـ أن القصة تصادم قواعد الشرع في قبول التوبة، فقد ذكرت أن الرجل تاب وأتى بزكاة ماله إلى النبي صلى الله عليه وسلم فرفضها، ثم إلى أبي بكر فلم يقبلها، وهكذا عمر وعثمان. وذلك خلاف قواعد الشريعة في قبول التوبة من المذنب.

٥ ـ أن أصول الشرع في إجراء الأحكام تلزم بتطبيقها على الناس كلهم، على قدم المساواة، وأخذاً بظواهر أحوالهم التي هي الإسلام، دون تفتيش عن بواطنهم، وقد كان النبي صلى الله علية وسلم يعامل المنافقين بحسب ظاهر إسلامهم، حتى رأس المنافقين عبدالله بن أبي بن سلول، عامله النبي صلى الله عليه وسلم بحسب ما يظهر من الإسلام، فكيف تخالف هذه القاعدة هنا في هذا الرجل؟؟.

لذلك يجب على الوعاظ والخطباء الحذر في إلقاء هذه القصة على الناس، وأول ذلك عدم ذكر الاسم، ثم عدم ذكر رفض توبته ورفض زكاته، فربما دعا ذلك بعضهم إلى عدم التوبة من ترك أداء الزكاة، توهماً منه أن هذا هو الحكم، فيكون القاص لذلك صاداً عن الحق.

وأما المحلي فإنه مقل من إيراد أسباب النزول، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله.....﴾.

قال المحلي: «رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم عام الحديبية قبل خروجه أنه يدخل مكة هو وأصحابه ويحلقون ويقصرون ففرحوا، فلما خرجوا معه وصدهم الكفار بالحديبية ورجعوا وشق عليهم ذلك وراب بعض المنافقين نزلت..».(١)

---

١ ـ سورة الفتح: ٢٧. وانظر تفسير الجلالين: ص ٦٨١.

وهذا إيراد بالمعنى لما أخرجه أئمة الحديث والتفسير من أوجه كثيرة(١)

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة﴾.

قال المحلي: «وعدوكم» أي كفار مكة «أولياء تلقون» أي توصلون «إليهم» قصد النبي صلى الله عليه وسلم غزوهم الذي أسره إليكم، وروي: «بحنين»،«بالمودة» بينكم وبينهم. كتب حاطب بن أبي بلتعة إليهم كتابا بذلك لما له عندهم من الأولاد والأهل المشركين، فاسترده النبي صلى الله عليه وسلم ممن أرسله معه، بإعلام الله تعالى له بذلك، وقبل عذر حاطب فيه».(٢)

وهذا تلخيص لحديث طويل أصله متفق عليه.(٣)

فهذه طريقة المحلي في رواية أسباب النزول، يذكر القصة بالمعنى دون تخريج.

ثانياً: تفسير القرآن بالحديث:

نجد في عمل السيوطي في تكملة تفسير الجلالين جملة جيدة من الأحاديث يستشهد بها لمناسبة شرحه معنى الآية، كما نوضح ذلك فيما يلي:

فمنه قوله تعالى: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾.

قال السيوطي: «ولم يلبسوا» يخلطوا «إيمانهم بظلم» أي شرك، كما فسر بذلك في حديث الصحيحين(٤).

---

١ ـ البخاري في التفسير: ٦:١٣٦ والجزية: ٤:١٠٣ ومسلم في الجهاد: ٥:١٧٥ و١٧٦، وانظر الدر المنثور: ٦:٨٠ ـ ٨١ فقد خرجه من مصادر أخرى كثيرة.

٢ ـ سورة الممتحنة: الآية:١ وتفسير الجلالين: ٧٢٩.

٣ ـ البخاري، وانظر روايات أخرى في الدر المنثور: ٦:٢٠٢ ـ ٢٠٥ ومسلم، تصرح بنزول الآية في شان حاطب وهي كثيرة جداً.

٤ ـ سورة الأنعام: الآية ٨٢ وتفسير الجلالين: ١٨٢.

فقد فسر الآية بالحديث مقتصراً على الإشارة إلى الحديث وتخريجه. وهو حديث صحيح متفق عليه، عن ابن مسعود قال: «لما نزلت: «الذين آمنوا..الخ» شق ذلك على المسلمين، وقالوا: أينا لم يظلم نفسه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليس ذلك، إنما هو الشرك، ألم تسمعوا قول لقمان لابنه: «يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم»(١)

ومنه: قوله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿لن تراني، ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً﴾.

قال السيوطي: «﴿فلما تجلى ربه﴾ أي ظهر من نوره قدر نصف أنملة الخنصر، كما في حديث صححه الحاكم...».(٢)

ففسر الآية بالحديث، مشيراً إليه وإلى مصدره وحكمه.

والحديث أخرجه أيضا أحمد والترمذي وقال: «حسن صحيح»(٣) فاختصر السيوطي وعزا الحديث للحاكم فقط وذكر درجته. وكان عزوه للترمذي أولى - لكن يبدو أنه اعتمد في اقتباسه على لفظ الحاكم.

وهكذا درج في مواضع أخرى أيضاً، يقتبس جملة من الحديث، ويعزوه إلى مصدره.(٤)

وقد يفسر السيوطي القرآن بالحديث على الطريقة المتقدمة في الاقتباس المختصر، لكن دون عزو لمصدر الحديث، ومن أمثلة ذلك: قوله تعالى في آخر آية الكرسي: ﴿وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم﴾.

---

١ - حاشية الصاوي على تفسير الجلالين: ٢:٥٦.

٢ - سورة الأعراف: الآية: ١٤٢ وتفسير الجلالين: ٢٢١.

٣ - تفسير ابن كثير:٢:٢٢٤.

٤ - انظر الصفحات: ١٢٥ و١٥٦ و١٩٧ و٢٦٢ و٢٧٧ و٣٤٠ و٣٥٠ و٣٨٦ من تفسير الجلالين.

قال السيوطي: ﴿وسع كرسيه السماوات والأرض﴾ قيل: أحاط علمه بهما، وقيل الكرسي نفسه مشتمل عليهما لعظمته، لحديث: ما السماوات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس).(١)

وهذا الحديث غريب جداً، والمشهور حديث: «ما السموات السبع، وفي رواية «ما السماوات والأرض في الكرسي إلا كحلقة بأرض فلاة، وما موضع كرسيه من العرش إلا مثل حلقة في أرض فلاة».(٢)

لكنه لا يفيد اشتمال الكرسي على السموات. وهذا الحديث الأخير أورده السيوطي بشواهد له بمعناه في الدر المنثور(٣) ولم يذكر فيه الحديث الذي ذكره في تكملة التفسير، مما يدل على شدة غرابته، وقد خرجه الطبري بسنده عن ابن زيد عن أبيه مرفوعاً. فهو ضعيف ومرسل.(٤)

ومثل هذا الصنيع في الرواية نادر عند السيوطي، وأكثر ما يغفل التخريج في أسباب النزول، لكنه يتخير منها ما هو قريب إلا ما تعقبناه في قصة ثعلبة.

وأما المحلي فإنه يقل من تفسير القرآن بالحديث، ويورد الحديث غير مخرج ومن أمثلة ذلك قوله في الآية: ﴿ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا﴾. فقال المحلي: «ضنكا: مصدر بمعنى ضيقة، وفسرت في حديث بعذاب الكافر في قبره».(٥) وهذا الحديث أخرجه البزار عن أبي هريرة مرفوعاً. قال الحافظ ابن كثير: «إسناد جيد».(٦)

وروي تفسير الآية بأنه «يضيَّق عليه في قبره حتى تختلف أضلاعه فيه».

---

١ ـ سورة البقرة: الآية: ٢٥٥ وتفسير الجلالين: ٥٦.

٢ ـ الدر المنثور: ١:٣٢٨.

٣ ـ الموضع السابق.

٤ ـ انظر تفسير ابن كثير: ١:٣١٧.

٥ ـ سورة طه: الآية: ١٢٤ وتفسير الجلالين: ٤٢٤.

٦ ـ تفسير ابن كثير: ٥:٣١٧.

لكن اختلف في رفعه ووقفه،(١) وقال ابن كثير:(٢) «الموقوف أصح».

ومن هذا نعلم حسن اختيار الإمام المحلي للرواية في تفسير الآية، وإن كان معنى الرواية خاصاً بنوع من العذاب، يدخل في عموم الحديث الأول.

وقال المحلي في آية: «يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن». قال: «فامتحنوهن بالحلف على أنهن ما خرجن إلا رغبة في الإسلام، لا بغضاً لأزواجهن الكفار، ولا عشقاً لرجال من المسلمين. كذا كان صلى الله عليه وسلم يحلفهن».(٣)

وهذا تلخيص لما ورد في أكثر من رواية، لكن في بعضها أن الذي كان يحلفهن هو عمر بن الخطاب، فاختار المحلي رواية أن ذلك كان من النبي صلى الله عليه وسلم. والأمر سهل لأن تحليف عمر لهن كان بأمر النبي صلى الله عليه وسلم، فجاز نسبته إلى النبي صلى الله عليه وسلم. أو أن بعضهن حلفه النبي صلى الله عليه وسلم والبعض حلفه عمر. ولا إشكال في اختيار المحلي، ويظل عمله في تفسير القرآن بالحديث سليماً، إلا ما سنأتي على ذكره.

ثالثاً: الإسرائيليات:

المراد بالإسرائيليات اللون اليهودي والنصراني من الثقافة والأخبار عن الأمم السابقة.

وقد كثر النقل لهذا اللون في بعض كتب التفسير دون تمييز بين ما يقبل وما لا يقبل وما يتوقف فيه. وكان لذلك أثر سيء في التفسير، بخصوص ما كان من القصص الخيالي المخترع.

وتنقسم الأخبار الإسرائيلية إلى أقسام ثلاثة نوضحها مع حكمها فيما يلي:

---

١ ـ انظر الطرق عند ابن كثير: ٥:٣١٦.

٢ ـ الموضع السابق نفسه.

٣ ـ انظر ابن كثير: ١:٣١٧.

القسم الأول: ما يعلم صحته بأن نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم نقلاً صحيحاً، وذلك كتعيين اسم صاحب موسى عليه السلام، أنه الخضر، فقد ثبت ذلك صريحاً في الحديث في البخاري. كذلك ما كان له شاهد من الشرع يؤيده. وهذا القسم صحيح مقبول.

القسم الثاني: ما يعلم كذبه، بأن يناقض ما عرفناه من الشرع، أو كان لا يتفق مع العقل. وهذا القسم لا يصح قبوله ولا روايته إلا مع التحذير منه.

القسم الثالث: ما هو مسكوت عنه، لا هو من قبيل الأول ولا هو من قبيل الثاني، وهذا القسم نتوقف فيه، فلا نؤمن به ولا نكذبه. لأنه إن قبلناه فقد يكون غير ثابت لما دخل تراثهم ونقلهم من الكذب، وإن كذبناه فقد يكون ثابتاً، لذلك نتوقف فيه.

وهذا القسم غالبه مما ليس فيه فائدة تعود إلى أمر ديني، ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في مثل هذا اختلافاً كثيراً، وقد تختلف عبارات بعض المفسرين مع بعض، بسبب ذلك، كما يذكرون في مثل هذا أسماء أصحاب الكهف، ولون كلبهم، وعصا موسى ومن أي الشجر كانت. وأسماء الطيور التي أحياها الله تعالى لإبراهيم عليه السلام، وتعيين بعض البقرة الذي ضرب به قتيل بني إسرائيل فأحياه الله وبيَّن قاتله، قال: قتلني ابن أخي.

إلى غير ذلك مما أبهمه الله في القرآن، لحكمة جليلة، مثل عدم اشتغال القارىء بما لا فائدة فيه، في أمر ديني ولا دنيوي.(١)

ونجد السيوطي يورد نبذاً من الإسرائيليات في تفسيره هذا متنوعة، منها ما يمكن قبوله، لموافقته مقصد نص القرآن.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما

---

١ ـ انظر في مسألة الإسرائيليات مقدمة ابن تيمية في أصول التفسير: ١٣ ـ ١٤ و٢٦ ـ ٢٧ والتفسير والمفسرون للدكتور محمد حسين الذهبي: ١٦٩:١ ـ ٢٠١ ففيه بحث واسع.

كفر سليمان. . .﴾

قال السيوطي: («واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان» من السحر، وكانت دفنته تحت كرسيه لما نزع ملكه.؟!!.

أو كانت تسترق السمع ـ يعني إلى السماء ـ وتضم إليه أكاذيب، وتلقيه إلى الكهنة، فيدونونه، وفشا ذلك وشاع أن الجن تعلم الغيب. فجمع سليمان الكتب ودفنها، فلما مات دلت الشياطين عليها الناس، فاستخرجوها، فوجدوا فيها السحر، فقالوا: إنما ملككم بهذا فتعلموه، ورفضوا كتب أنبيائهم..)(١)

فقوله: أو كانت تسترق موافق لمقصود الآية، وهو افتراء اليهود وقلبهم الحقائق، وجعلهم عمل سليمان من السحر، مع أنه كان حرباً على السحر عليه السلام، مما يجعل إيرادها ممكن القبول.

ومن الإسرائيليات عنده ما يتوقف فيه لغرابته:

ومن أمثلة ذلك قوله في شان البقرة التي أمر بنو إسرائيل بذبحها، ومراجعاتهم في صفاتها، فقال: «فوجدوها عند الفتى البار بأمه فاشتروها بملء مَسْكها ذهباً.(٢)

فقوله «بملء مَسْكها» أي جلدها، غريب حقاً، والقصة طويلة، اختصرها السيوطي، وفيها حبك غريب. الله أعلم بحقيقتها.

ومن الإسرائيليات المشكلة عند السيوطي ما أورده في تفسير قوله تعالى في قصة يوسف عليه السلام: ﴿ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه﴾.

قال السيوطي: «قال ابن عباس: مثل له يعقوب فضرب صدره، فخرجت شهوته من أنامله». وجواب لولا لجامعها.(٣)

---

١ ـ سورة البقرة: الآية: ١٠٢ وتفسير الجلالين: ٢١، وانظر ماسيأتي.

٢ ـ سورة البقرة: الآيات: ٦٧ ـ ٧٣، وتفسير الجلالين: ١٥.

٣ ـ الآية: ٢٤ سورة يوسف. وتفسير الجلالين: ٣١٢.

وهذا مشكل غير مقبول، لما هو معلوم من عصمة الأنبياء عن القبائح قبل النبوة وبعدها، وهذا لا يتفق مع العصمة، لأنه يؤدي إلى أنه ترك الفاحشة لأمر ملجيء.

وقوله: «وجواب لولا لجامعها» غير مسلم، بل المعنى «لولا أن رأى برهان ربه لهم بها». أي أنه لم يهم بها إطلاقا. كما تقول: سافر فلان، وسافرت لولا المرض. أي أنك لم تسافر. وشتان بين الهم والجماع.

ومن الإسرائيليات عند المحلي قوله في تفسير الآية في قصة أيوب عليه السلام: «وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا.....».

قال المحلي: «وكان له أندر للقمح وأندر للشعير، فبعث الله سحابتين أفرغت إحداهما على أندر القمح الذهب، وأفرغت الأخرى على أندر الشعير الورق حتى فاض».(١)

وهذا الذي ذكره المحلي جزء من حديث طويل أخرجه ابن أبي الدنيا وأبويعلى وابن حرير وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم وصححه، وابن مردويه عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم».(٢)

فهذه مقبولة لثبوتها في الحديث، وهي معجزة للنبي أيوب عليه السلام.

روايات وإسرائيليات باطلة:

وقد وقع في تفسير الجلالين عدة روايات وإسرائيليات باطلة لا يجوز قبولها، ولا تصديقها بحال، بعضها عند السيوطي وأكثرها وأشدها خطراً عند المحلي،

---

١ ـ سورة الأنبياء: الآية٨٤. وانظر تفسير الجلالين: ٤٣٥. والأندر: بيت كبير يجمع فيه الطعام ويكدس.

٢ ـ الدر المنثور: ٤:٣٣٠ وانظر تفسير ابن كثير: ٥:٢٥٦ و٢٥٧.

فقد أورد عن ابن أبي حاتم حديث «لما عافى الله أيوب أمطر عليه حراداً من ذهب ...». و٧:٦٦ وخرج من المسند والبخاري حديث: «بينما أيوب يغتسل عريانا خرّ عليه حراد من ذهب..».

لغلبه اشتغاله بالفقه، نذكر ما أحصيناه منها بإيجاز، بحسب ترتيبها في التفسير، ليحذرها قارىء البحث، بل ليحذِّر القارىء الناس منها، فيقبلوا على تفسير الجلالين وقد عرفوا أمرها، فتكمل فائدتهم من هذا التفسير، ويطمئنوا إلى ما يحصلونه منه، بعد هذا التنبيه، الذي يجعل إفادة القارىء سالمة من الشوائب.

وهذه الروايات والإسرائيليات هي:

١ ـ قوله قيما سبق أن نقلناه: «لما نزع ملكه» أي ملك سليمان عليه السلام.

هذا إشارة إلى قصة طويلة باطلة مستحيلة، سيأتي ذكرها في سورة «ص» بإيجاز:

٢ ـ قصة نزول آية: «ومنهم من عاهد الله» التي سبق تفصيل بطلانها.

٣ ـ ما ذكره في قصة يوسف، في آية: ﴿ولقد همت به﴾، وسبق أن نقدناه.

٤ ـ قصة الغرانيق، في آية: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا اذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته﴾ الآية:٥٢ من سورة الحج.

فزعمت القصة الباطلة أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قرأ من سورة النجم: ﴿ومناة الثالثة الأخرى﴾ فألقى الشيطان على لسانه: تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى». . . . . إلخ.

وهي قصة مكذوبة ليس لها سند يعتمد عليه، يدل على بطلانها أوجه كثيرة من علم أصول الحديث. وعلامات الحديث الموضوع، التي قررها علماء الحديث، ومن قبلها فقد أدخل الشك على النبوات، وخالف عقله. قال الإمام البيهقي: «هي غير ثابتة من جهة النقل». وذكر عن الإمام ابن خزيمة أن هذه القصة من وضع الزنادقة.(١)

---

١ ـ انظر تحقيقاً مطولاً في إبطال القضية في كتاب «هدي القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان» لفضيلة أستاذنا الشيخ عبدالله سراج الدين، ص ١٥٥ ـ ١٨٢.

٥ ـ قصة الصرح الذي دخلته بلقيس، في تفسير سورة النمل: الآية: ٤٤. أن سليمان أراد به أن يرى ساقي بلقيس ليكشف عن دعوى الجن أنهما ساقا حمار؟!!، وهو قصص متهافت. يغني ظهور تهافته عن التطويل في الرد عليه. وسياق القصة يقرر أنه أراد تقوية دعوتها إلى الله، فأراها صنعاً عجيباً. فاستجابت «قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين». وأين هذا مما زعمته القصة؟!.

٦ ـ ما ذكره في قصة نكاح النبي صلى الله عليه وسلم من السيدة زينب رضي الله عنها، في تفسير سورة الأحزاب: الآية: ٣٧: ﴿وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله. وتخفي في نفسك ما الله مبديه..﴾، فقال المحلي: «مظهره من محبتها، وأن لوفارقها زيد تزوجتها».

فهذا مأخوذ من آثار غريبة، تخالف الثابت عن أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم أن الله أعلمه أنها ستكون من أزواجه فهو الذي كان في نفسه عليه الصلاة والسلام، كما قال علي بن الحسين زين العابدين رضي الله عنهما والسدي.(١)

بل هي مخالفة لنص القرآن، لأن الله أبدى أمره بتزوجها وكراهة النبي صلى الله عليه وسلم لذلك،وأنه أمر فرضه الله له أي أحله له. وأين هذا مما ذكره المحلي؟!.

٧ ـ قصة زواج داود عليه السلام في تفسير الآيات: ﴿وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب، إذ دخلوا على داود ففزع منهم» الآيات ٢١ ـ ٢٥ من سورة «ص».

فجعل المحلي الخصوم ملكين «جاءا. . . لتنبيه داود عليه السلام على ما وقع منه، وكان له تسع وتسعون امرأة، وطلب امرأة شخص ليس له غيرها وتزوجها ودخل بها».

---

١ ـ البداية والنهاية لابن كثير: ١٤٧:٤ وانظر تفسيره أيضا، وقد أعددنا رداً مفصلاً لهذه الرواية لم ينشر بعد.

وللقصة تفاصيل في الإسرائيليات تشهد أنها باطلة: لأنها منافية لعصمة الأنبياء وعصمة الملائكة، بل مناقضة لرفعة العقلاء. فضلاً عن سمو الأنبياء عليهم السلام، وحاشا داود من مثل هذا الصنيع، حتى على اللفظ الذي أوردناه. وإنما جاءت هذه القصة من تلفيق الخيال الإسرائيلي الذي يريد أن نسوغ لليهودي أن يأتي كل فعل خبيث، دون تحرج. عياذاً بالله تعالى.

٨ ـ قصتا فتنة سليمان عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد..﴾ الآيات ٣١ ـ ٣٤ من سورة «ص» أيضاً.

فذكر المحلي أن سليمان شغل بتفقد الخيل للجهاد عن صلاة العصر حتى فاتته فأمر بذبح الخيل. وأنه ابتلي بسلب ملكه لتزوجه امرأة عشقها وكانت تعبد الصنم في دار بغير علمه. . .» إلى آخر ما ساقه. . .

فهاتان قصتان من صنع ذوي الخيال والأوهام الباطلة. مخالفتان عصمة الأنبياء، منافيتان العقل الصحيح.

ونقرر في الختام أن تفسير الجلالين مهم ومفيد جداً، لاختصاره وغزارة مادته، ولهذا صنعت عليه حواش كثيرة اشتهر منها حاشيتا الجمل والصاوي رحمهما الله تعالى. ونحن بهذا البحث نتمم فائدة هذا التفسير، ونقترح لتحقيق هذا الإتمام لفائدة هذا التفسير ما يلي:

١ ـ إعادة طبعة محققاً على وفق أصول التحقيق العلمية.

٢ ـ تخريج أحاديثه وبيان حالها من حيث الصحة أو الضعف.

٣ ـ التعليق بما ذكرناه هنا من التحذير من الروايات والإسرائيليات الباطلة.

٤ ـ التعليق بما يحل غوامض الكتاب بإيجاز شديد يناسب حجمه وغرض مؤلفيه الإمامين الجليلين رحمهما الله تعالى وأجزل مثوبتهما.

وفقنا الله تعالى إلى تلاوة كتابة العزيز حق التلاوة، ورزقنا علم تفسيره وتأويله والعمل به.

والحمد لله رب العالمين.

المراجع

- الإتقان في علوم القرآن. للإمام السيوطي. ط. مصطفي البابي الحلبي. مصر.
- أسباب النزول، للواحدي، تحقيق سيد أحمد صقر، ط. دار المعارف. مصر.
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبدالبر بحاشية الإصابة. ط. الخانجي. مصر.
- البداية والنهاية، لابن كثير،ط. دار الكتب العلمية. بيروت.
- تفسير الجلالين. ط. دار مروان ـ الدار الغربية.
- تفسير القرآن العظيم. لإسماعيل بن كثير، ط. دار المعرفة ـ بيروت.
- التفسير والمفسرون. للدكتور محمد حسين الذهبي، ط. دار إحياء التراث العربي،
- الثقات، لمحمد بين حبان البستي، ط. الهند.
- جامع البيان في تأويل آي القرآن. للطبري. ط. دار المعارف. مصر.
- حاشية الصاوي على تفسير الجلالين. ط. دار الفكر. بيروت.
- الدر المنثور في التفسير المأثور، للسيوطي. ط. دار الثقافة ببيروت.
- دلائل النبوة، للبيهقي. تحقيق عبدالمعطي قلعه جي. دار الفكر.
- الطبقات الكبرى، لمحمد بن سعد. ط. دار بيروت. لبنان.
- القرآن الكريم والدراسات الأدبية للدكتور نورالدين عتر. ط. جامعة دمشق.
- لباب النقول في أسباب النزول. بذيل تفسير الجلالين.
- المدخل إلى دراسة القرآن الكريم. لمحمد محمد أبي شهبة. ط. مصر.
- المغني في الضعفاء للإمام شمس الدين الذهبي. تحقيق الدكتور نورالدين عتر. ط. دار المعارف.
- مقدمة في أصول التفسير، لابن تيمية. ط. مطبعة الترقي، دمشق.
- مناهل العرفان في علوم القرآن، لمحمد عبدالعظيم الزرقاني. ط. دار إحياء الكتب العربية ـ الطبعة الثانية بالقاهرة.

- منهج النقد في علوم الحديث. للدكتور نورالدين عتر. ط. دار الفكر. الطبعة الثالثة.
- الموافقات، للشاطبي. ط. المكتبة التجارية. مصر.
- هدي القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان، لأستاذنا الشيخ عبدالله سراج الدين. ط. دار الفلاح. حلب.